

## نظرة استعراضية نقدية في الحلقة الخامسة من كتاب

(تجربتي في الكتابة التاريخية)،

للمؤرخ الكبير الاستاذ الدكتور فاروق عمر فوزي

النموذج الثالث في مجال التقد التاريخي

مشادة حول مؤرخ عمان العوتبي الصحاري<sup>(1)</sup>

### تمهيد:

أبو المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم العوتبي الصحاري فقيه وأديب ومؤرخ ونسابة عُمانِي، ينسب إلى عوتب؛ وهي ضاحية من ضواحي صحار، أما انتماؤه القبلي فمن الواضح أنه من القبائل اليمانية باتفاق المتقدمين والمتأخرين. ولكن الباحثين اختلفوا في القبيلة التي ينتمي إليها، فأشار بعضهم إلى انتسابه إلى طاحية بن سود بن الحجر بن عمران، وأشار آخرون إلى انتماؤه إلى العتيك القبيلة الأزديّة، وهم بنو العتيك بن الأسد بن عمران، على أن كلاً من طاحية والعتيك انتشرت في سهل الباطنة وكانتا متداخلتين مع بعضهما كما أشار العوتبي نفسه في كتابه الأنساب.

ولعلنا نشير بدءًا إلى أن أحد العوامل في ظهور المشادة بين الباحثين المحدثين حول شخصية العوتبي والزمن الذي عاش فيه وحقيقة نسبة بعض مؤلفاته إليه وخاصة كتاب الأنساب، هو ما لاحظ بعضهم مثل إبراهيم بكير

---

(1) بحث ألقى في ندوة وحدة الدراسات العُمانية، جامعة آل البيت، الأردن، سنة 2004م.

بحاز، وحسن محمد عبد الله النابودة، من وجود صفة تغلب على معظم مصادر تاريخ عمان المحلية وهي أن المؤلف ينقل عن سبقه من دون أن يذكر مصدره في أغلب الأحيان.

يقول إبراهيم بحاز في معالجته لإشكاليات النسخ والعنوان والمؤلف في مخطوطات كشف الغمة للأزكوي: ... "ويبدو أن المنهج المتبع عند العُمانيين في تأليف مصنفاتهم، أو عند بعضهم على الأقل، هو النقل والاقْتباس دون الإشارة إلى المصدر المعتمد وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالتاريخ". ويشير الباحث نفسه في موضع آخر إلى اقتباس سرحان بن سعيد الأزكوي للفصول المتعلقة بالفرق الإسلامية مباشرة من (كتاب الكشف والبيان) للقلهاتي، دون أن يذكر مصدره يقول: "وهي عادة العُمانيين على ما يبدو عند الاقتباس خاصة عندما يتعلق الأمر بالتاريخ والأخبار". وفي السياق نفسه يشير حسن النابودة إلى اعتماد الأزكوي على مصادر دون تسميتها فيقول: "ويلاحظ من رواياته (الأزكوي) التي تتميز بعضها بالدقة والوضوح، أن الأزكوي اعتمد على مصادر محلية سابقة لا يذكرها منها كتاب الأنساب المنسوب للعوتبي الذي يعد من أهم مصادر التاريخ العُماني وأقدمها، وقد استشهد به كثيرًا في حديثه عن الشخصيات البارزة في التاريخ العُماني دون أن يشير إلى ذكر اسمه أو كتابه وهذه من جملة المآخذ على الأزكوي". ويتفق محمد قرقرش مع الباحثين السابقين حين يقول: "استغنى العوتبي عن الإسناد في صلب كتابه بصورة كبيرة خاصة في القسم الثاني من أنسابه ولم ينص صراحة على سنده وعلى مصادر خبره إلا في روايات قليلة يرجع معظمها إلى فترة ما قبل الإسلام". ولكن قرقرش يبرر ذلك

حين يسوق اعتراف العوتبي في مقدمة كتاب الأنساب حين قال: "وكان غرضي من جميع ما اقتصت الإيجاز والاختصار ولو قصدت الاستقصاء لطلال الكتاب". والواقع أن عدم الاهتمام بالسند والمصدر أو اختصاره في التدوين التاريخي كانت من سمة العصر الذي عاش فيه العوتبي وهو القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وما بعده، مع استمرار المدرسة "السندية" القديمة عند فئة من المؤرخين.

ويضيف عبد الرحمن السالمي ظاهرة أخرى ساهمت في ارتباك معلوماتنا أو غموضها فيما يتعلق بالمؤلف أو الكتاب العُماني وهي "مشكلة الخلط بين أسماء الأعلام"، ويعزوها إلى ثلاثة أسباب: أولها قلة اهتمام العُمانيين بتدوين تراجم العلماء ومشاهير الرجال مما أدى إلى قلة المعرفة بهم. وثانيها تأخر حركة التدوين التاريخي في عُمان بالمقارنة مع الأقاليم العربية والإسلامية الأخرى. وثالثها تشابه الأسماء والكنى والألقاب للعديد من العلماء والمشاهير في عُمان، فحين يشير المؤلف إلى الكندي مثلاً فهل يقصد صاحب بيان الشرع أو صاحب المصنف، وكذا الحال حين الإشارة إلى أبي سعيد فهل المقصود الكدمي أو القلهاتي... وهكذا.

أما الظاهرة الأخيرة فتعود إلى الباحثين المحدثين أنفسهم، فإذا كانت مصادرنا وخاصة كتب التراجم والطبقات لا تسعفنا في التعرف على العوتبي ومساهماته المتميزة، فلا بد للباحثين المتخصصين من الرجوع إلى مؤلفاته المتداولة منشورة ومخطوطة ودراستها دراسة شمولية معمقة بأجزائها المتعددة

وربط بعضها ببعض عليها تلقى ضوءًا على سيرته الشخصية ومنهجه في التأليف ومؤلفاته. وهذا ما تنبه إليه بعض الباحثين الأكاديميين وهم يدرسون بعق هذا الكتاب أو ذاك من مؤلفات العوتبي، حيث أشار محمود الريامي في خاتمة دراسته عن كتاب الإبانة إلى "ضرورة دراسة تراث العوتبي مجتمعاً وذلك لأن الفقه واللغة والأنساب يكمل بعضها البعض الآخر، ويلقي في الوقت نفسه أضواءً كاشفة جديدة على سيرة العوتبي ومنهجه وميوله، ويصحح العديد من الإشكالات التي وقع بها بعض الباحثين. وفي السياق نفسه يؤكد حسن النابودة من خلال دراسته لكتاب الأنساب أن "دراسة موسعة وشاملة وعميقة لكتاب الأنساب ستؤدي إلى معرفة تفاصيل أكثر عن المؤلف الأصلي والفترة التي عاصرها والمشاكل التي تعرض لها". وحين يتكلم الباحث نفسه عن الكتب الأخرى لمؤلف الأنساب، والتي أشار إليها في (الأنساب) ولا زالت مفقودة يقول "ولا شك أن العثور على أي من هذه الكتب تكون له فائدة كبيرة لمعرفة تفاصيل عن مؤلف كتاب الأنساب. بعد هذه الملاحظات الموجزة سنتناول المشادة بين الباحثين المعاصرين من عرب ومستشرقين حول العوتبي محاولين توضيح أهم نقاط الخلاف.

### **شخصية العوتبي وعصره ومؤلفاته:**

رغم أهمية العوتبي الصحاري كمؤلف موسوعي متعدد المواهب والاختصاصات، حيث أُلّف في مجال الفقه واللغة والأدب والنسب والتاريخ وغيرها من المجالات الفكرية، فعدا مؤلفاته المعروفة والمتداولة مثل كتاب

الضياء في الفقه في 24 جزءًا وكتاب الأبانة في اللغة وكتاب الأنساب، أشار العوتبي إلى مجموعة أخرى من كتبه منها: كتاب يبين الحكمة في الحكم والأمثال (وهو كتاب الإبانة نفسه) وكتاب الإمامة وكتاب محكم الخطابة في الخطب والرسائل وكتاب ممتع البلاغة في الوفود والوفادات، وكتاب أنس الغرائب في النوادر والأخبار والفكاهات والأسماء. إلا أن هذه الكتب لم يُعثر عليها لحد الآن، على أن العوتبي يشير إلى بعض موضوعاتها ويسردها في كتبه الأخرى المتداولة والمنشورة الآن. ورغم أن العوتبي من أسرة مشهورة في الباطنة وصحار وحواليها، وأن أفرادًا من أسرته شاركوا في الأحداث السياسية خاصة في عهد الإمامة الإباضية الثانية في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وأكثر من هذا رغم أن العوتبي كان رائدًا لحركة تجديدية ضمن مدرسته الفقهية التي درس على شيوخها وهي (مدرسة الرستاق) المعروفة، وأنه كان رائدًا لحركة علمية في المجالات التي تعمق فيها مثل الفقه واللغة والتاريخ في إطار النسب حيث غدا شيخًا لمدرسة في عوتب تخرّج على يديه عدد من طلبة العلم وأنتج عددًا من المؤلفات. نقول رغم ذلك كله... نلاحظ التناقض والغموض يلف شخصيته وعصره وشيوخه، ليس بين الباحثين في عصرنا الحاضر، ولكن بين المؤرخين العُمانيين الأوائل. فعلى سبيل المثال نلاحظ الأزكوي في كتابه (كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة)، وهو من أهم مؤرخي عُمان الذين عاشوا حتى أوائل القرن 12هـ/18م ينقل من كتاب الأنساب في محاور عديدة دون أن يذكر عنوان الكتاب واسم مؤلفه. أما ابن رزيق مؤرخ عمان في القرن الثالث عشر الهجري/19م فهو الآخر يأخذ من

أنساب العوتبي في كتابه (الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين) دون أن يشير إلى اسمه. ولكنه يعود فيذكر العوتبي في كتابه الآخر المرسوم (الصحيفة القحطانية) وينسب إليه كتاب الأنساب. وتتضح الصورة أكثر مع نور الدين السالمي وكتابه (تحفة الأعيان في سيرة أهل عُمان) حيث ينسب كتاب الأنساب للعوتبي، ولكن نور الدين السالمي فرق في كتابه الآخر (اللمعة المرضية) بين العوتبي صاحب الضياء والعوتبي مصنف الأنساب.

إنّ هذا التفريق بين العوتبي (صاحب الضياء) والعوتبي (صاحب الأنساب) أو القول بأن مؤلف الأنساب هو شخص آخر غير العوتبي، أدخل الباحثين المحدثين في مشادة. وقد عالج هذه الإشكالية عدد من الباحثين، ولا يمكننا في هذا البحث حصرهم جميعاً واستعراض تخريجاتهم في هذا المجال. ولابد أن نقول بأن أغلبية الباحثين من عُمانيين وعرب وأجانب تعاملوا مع العوتبي باعتباره مؤلف كتابي الأنساب والضياء لأن العديد من المصادر العُمانية تتفق على ذلك.

إلا أن أول من شكك في شخصية العوتبي كان المستشرق باثريست 1966م ولكنّه لم يقدّم البديل، ثم تبعه المستشرق وكنسون 1971م ثم الباحث العُماني عبد الرحمن السالمي سنة 2000م، ثم الأستاذ الأكاديمي حسن محمد عبدالله النابودة سنة 2005م على التتابع. أما الباحث الأكاديمي محمود الريامي 2002م فلم يتفق معهم وتبنى وجهة نظر مغايرة.

كان ولكنسون مترددًا في فرضيته حول العوتبي، ففي بداية الأمر أشار إلى وجود شخصيتين باسم العوتبي: الأول أبو المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم وهو مصنف كتاب الأنساب والثانية أبو إبراهيم سلمة بن مسلم بن عيسى بن سلمة (مصنف كتاب الضياء). وبكلمة أخرى فإن أبا إبراهيم صاحب كتاب الضياء هو جد أبي المنذر صاحب كتاب الأنساب. ولكن ولكنسون تراجع عن فرضيته هذه في بحث له سنة 1986م وأشار إلى أن هناك شخص واحد باسم العوتبي ولكنه كانت له كنيتان (أبو المنذر) وهي الأكثر شيوعًا وتداولًا ثم (أبو إبراهيم). ثم عاد ولكنسون مرة أخرى وفصل بين الشخصيتين. وهكذا كان ولكنسون مرتبًا لم يستقر على قناعة ثابتة.

وأسهب الباحث العُماني عبد الرحمن السالمي في مقاله عن (تعددية العوتبي وترجمته) في مناقشة فرضية ولكنسون رغم تراجع الأخير عنها ثم عودته إلى طرحها مما أضعفها دون شك. وكان عبد الرحمن السالمي متحفظًا في بداية الأمر تجاه الفرضية، وأوضح أن الحاجة ماسة لدراسة أشمل عن العوتبي تأخذ بنظر الاعتبار العلماء المعاصرين له وشيوخه. إلا أن عبد الرحمن السالمي عاد ورجع إلى فرضية ولكنسون. كما قبل رأيه في أن العوتبي اقتبس من ابن حزم الأندلسي (464هـ/1070م) في كتابه (جمهرة أنساب العرب). و هذا يجعل العوتبي من الذين عاشوا في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وهذا تخريج يصعب قبوله. ومن هذا فإن عبد الرحمن السالمي في رأيه النهائي يعطي حكمًا عامًا حول زمن وفاته ويقول أن

العوتبي عاش وتوفي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي دون تحديد وجزم.

أما محمود بن سليمان الريامي فمع أن أطروحته تخص الصياغة المعجمية في (كتاب الإبانة) للعوتبي، فقد خصص الفصلين الأولين لعصر العوتبي وحياته ومؤلفاته. وبقدر تعلق الأمر باسمه ونشأته استعرض الريامي بعض البحوث والدراسات السابقة مشيراً إلى أن هذه الدراسات لم تنظر للعوتبي نظرة شمولية بجميع جوانب حياته وثقافته المختلفة. ولم تحاول توظيف حياة العوتبي توظيفاً يخدم حقول المعرفة التي ألف فيها، ولم تستفد من مؤلفات العوتبي التي وصلت إلينا، ولم تحط إحاطة تامة بمنهج العوتبي العام في التأليف، ذلك المنهج الذي وجدت أصدائه في أغلب مؤلفاته. ويرفض الريامي فرضية ولكنسون ومن اتفق معه، ويرى أن الفصل بين شخصية مؤلف الضياء وجعل كنيته أبا إبراهيم وشخصية مؤلف الأنساب وجعل كنيته أبا المنذر، فصل خاطئاً يعود لعدم قراءة كتب العوتبي مجتمعة قراءة واعية بحيث يسند بعضها بعضاً. ويستند الريامي إلى دليل واضح هو وجود الإحالات من كتاب إلى آخر، حيث يحيل العوتبي نفسه من كتاب إلى آخر من كتبه، هذا بالإضافة إلى أن المصادر القديمة أمثال الكندي والشقصي وابن مّداد، تكني العوتبي بكنيتين الأولى أبو المنذر والثانية أبو إبراهيم، ثم جاء بعدهم نور الدين السالمي الذي كان أكثر وضوحاً في بيان أن للعوتبي كنيتين حيث يقول: "وكتاب الضياء للشيخ أبي إبراهيم سلمة بن مسلم الصحاري العوتبي" ثم يقول في الكتاب نفسه "وكتاب الإمامة تأليف أبي المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم صاحب الضياء



وله أيضًا كتاب الأنساب" وبهذا يكون الريامي قد فُتد فرضية ولكنسون بوجود شخصيتين باسم العوتبي، ويرى أن اسم العوتبي الكامل هو (أبو المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم بن مسلم بن عيسى بن سلمة الطاحي العوتبي الصحاري).

وحيث يعالج الريامي تاريخ ميلاده ووفاته، فهو يدرك الاختلاف الكبير والمربك حول الموضوع، ولكنه يرى أن كثيرًا من العلماء الذين نقل عنهم العوتبي عاشوا بعد النصف الأول من القرن الرابع الهجري مثل ابن بركة 361هـ وأبو الحسن البسيوي (ت القرن 5هـ) وابن سعيد الكدمي (ت 361هـ) وآخرهم الجرجاني (ت 392هـ). أما الأندلسي الذي أشار إليه العوتبي في الأنساب، فهو ليس ابن حزم الظاهري الأندلسي (ت 456هـ) كما اعتقد بعض الباحثين، وإنما هو عبد الملك بن حبيب الأندلسي (ت 238هـ) حيث ذكره العوتبي باسمه أو أحيانًا "قال الأندلسي". ولا بد أن نحذر كذلك من زيادات النسّاخ في كتب العوتبي وهي ليست قليلة وتحتاج إلى التمعن والدقة. ويصل الريامي إلى قناعاته في موضوع الولادة والوفاة حيث يقول: "والراجح أن العوتبي ولد في الربع الثالث من القرن الرابع الهجري أي بين سنة 350هـ - 375هـ وتوفي في العقد الرابع من القرن الخامس الهجري بين 430هـ إلى 440هـ". ويسند الريامي رأيه بعدة أدلة منها: أولاً: أن آخر العلماء الذين ذكروا في كتاب الإبانة هو ابن خالويه (ت 372هـ) وآخر العلماء الذين ذكروا في كتاب الضياء هو الشريف الجرجاني (ت 395هـ)، وإذا علمنا التلازم في تأليف الكتابين من حيث الزمن، أدركنا أنهما ألفا في أواخر القرن الرابع الهجري وبدايات القرن الخامس الهجري، حيث لم يذكر العوتبي أو ينقل عن علماء وجدوا بعد هذه

الحقبة. وثانيًا أن تلميذ العوتبي أبو سليمان هداد بن سعيد كان قاضيًا على صحار للإمام راشد بن سعيد اليعمدي الذي توفي سنة 445هـ ومعنى ذلك أن الشيخ هداد تلقى العلم من العوتبي قبل هذا التاريخ، وأن العوتبي كان يقعد للتدريس في أواخر القرن الرابع وبدايات القرن الخامس الهجري. وثالثًا أن عددًا من الكتب المؤلفة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري تنقل كلام العوتبي وكلام تلميذه هداد.

أما حسن محمد النابودة فينهج منهجًا آخر يختلف عن بقية الباحثين، فمع أن المخطوطات الخمس الموثوقة والتي بين أيدينا تذكر أن العوتبي هو مؤلف كتاب الأنساب. فإن النابودة يرى "أن مؤلف الكتاب ليس من أسرة العوتبي لكنه من سكان عُمان"، ويضيف أنه لا بد من دراسة كتاب الأنساب وما ورد فيه من روايات مختلفة دراسة نقدية تحليلية، وأنه من خلال ما جاء في كتاب الأنساب تولدت لديه "قناعة بأن مؤلفه ليس فقيهاً كما أنه ليس أديباً وليست له ميول دينية لكي يضع مؤلفات في اللغة والدين بحجم موسوعي "الإبانة" و"الضياء". ويسرد النابودة عددًا من الأسباب التي ولدت عنده هذه القناعة نجملها فيما يلي:

(1) أن المعلومات عن كتاب الأنساب ومؤلفه شحيحة فليست لدينا أخبار عن سيرته أو مذهبه مما يعني أننا أمام مؤلف مجهول.

(2) الاختلاف الكبير في المنهج والأسلوب بين كتاب الضياء وكتاب الأنساب وخاصة من ناحية الميول المذهبية.

(3) الأركوي وابن رزيق ينقلان حرفياً من كتاب الأنساب ولا يشيران إلى الكتاب ولا إلى مؤلفه. فإذا كان الأركوي وهو أشهر مؤرخ عُمانى لا يعطينا جواباً عن كتاب الأنساب، فعلى من نستند؟

(4) المؤلف له ميول عُمانية واضحة ولكنه لا يثني على المذهب الإباضي، وهو أمر نجده واضحاً في كتاب الضياء للعوتبي، ومن هنا يستبعد النابودة أن يكون مؤلف كتاب الأنساب من علماء المذهب الإباضي. إلا أن النابودة يبقى متردداً حول شخصية المؤلف ونسبة كتاب الأنساب إليه، وهذا واضح في قوله حين يتكلم عن الكتب الأخرى الذي ذكرها مؤلف الأنساب على أنها من تأليفه "ولا شك فإن العثور على أي من الكتب المذكورة سوف تكون له فائدة كبيرة لمعرفة تفاصيل أكثر عن مؤلف كتاب الأنساب وحياته...".

### **ميوله ونزعاته الفكرية:**

اهتم عدد من الباحثين بمذهب العوتبي وميوله السياسية والفكرية، وقد أخذ جميعهم بنظر الاعتبار بيئته الساحلية في صحار وما جاورها باعتبارها ميناءً تجارياً ومجتمعاً متنوع الثقافات والأجناس مما أثر على توجه أهلها المعتدل والمتسم بالمرونة والحيادية في المعترك الديني - السياسي آنذاك. كما أشاروا إلى أثر الصراع السياسي المحتدم بين الإمامة الإباضية والقوى الخارجية الطامعة في عُمان، إضافة إلى النزاع السياسي - العقدي بين النزوانية والرساقية.

يقول عبد الرحمن السالمي إن نشأة العوتبي كانت في فترة إعادة إحياء الإمامة الإباضية، وهي فترة شهدت صراعات متعددة منذ غزو محمد بن نور سنة 280هـ/893م وما رافقها وتبعها من سلسلة متتالية من الغزاة من بويهيين وقرامطة وتركمان (سلاجقة) سنة 456هـ/1063م، وكرد فعل حاولت عمان التوسع الإقليمي ومد نفوذها السياسي ضد نشاطات الفاطميين في حضرموت الذين ساندوا الصليحي، وكذلك في التدخل العُماني في الإحساء وهجر ضد القبائل المعادية وخاصة نهد وعقيل، ونشاطات أقل في غربي الهند والساحل الأفريقي الشرقي. ثم يشير عبد الرحمن السالمي إلى ظاهرة أخرى شهدت هذه الفترة وهي انتعاش الحركة العلمية وخاصة حركة التأليف في موضوعات العقيدة، وكذلك ظهور المصنفات الموسوعية في الفقه مثل بيان الشرع في 72 مجلدًا، والمصنف في 42 مجلدًا والكفاية في 51 مجلدًا، والضياء في أكثر من 40 جزءًا على حد قول البرادي. في هذا الجو الفكري - السياسي برز العوتبي كأحد علماء الإباضية مستندًا على مكانة عائلته في منطقة الساحل مكونًا موقفًا متميزًا يتصف بكونه فوق النزاعات القبلية وفوق الصراعات المذهبية السياسية بين الرستاقية والنزوانية، رغم أنه تتلمذ على شيوخ المدرسة الرستاقية، ويختتم عبد الرحمن السالمي كلامه بالقول بأن العوتبي لعب دور العالم ذي النزعة الإصلاحية الجديدة مما جعله أكثر قبولاً لدى الناس وتجاوزت شهرته عمان إلى خارجها. ويستطرد عبد الرحمن السالمي قائلاً "لقدتبنى العوتبي موقفًا أكثر تطورًا ليكون مدرسة متميزة منعزلًا عن الصراعات السياسية الدينية القائمة بين القبائل والأئمة والعلماء...". لذا فإننا لا نجد للعوتبي ذكرًا في تلك الصراعات.

وحين بلغ الصراع الداخلي حدته بين الرستاقية والنزوانية كان يحاول إيجاد صيغة لتفهم وشرح الجوانب العقائدية بآراء حديثة". وهذا واضح في فتاواه في كتاب الضياء وفي سيرته ضمن كتاب السير والجوابات (مجموعة مؤلفين، ط2، ص39).

كما أن موقفه الموضوعي يغلب على صفحات كتابه في الأنساب. ويؤيد الريامي وجهة النظر التي تقول بأن العوتبي يمثل جيلاً جديداً من المدرسة الرستاقية، ويورد مثلاً على ذلك في قضية عزل الإمام الصلت بن مالك الخروصي، حيث أن شيخه ابن بركة يقول بوجوب البراءة من الذين عزلوا الإمام الصلت، أما العوتبي فرأى أن البراءة تجب على من شهد معه الحدث وعلم حرمة. أما من خفي عليه الأمر فليس عليه أن يبرأ. وبكلمة أخرى فإن ابن بركة شيخ الرستاقية وشيخ العوتبي كان يلزم العوام السؤال عن حكم الخارجين على الإمامة والبراءة منهم، ولم يلزم العوتبي ذلك. وهذا اتجاه جديد فيه الكثير من المرونة في مسائل الولاية والبراءة. ويؤيد ذلك ما أشار إليه العوتبي في الضياء: "فكل فعل احتمل حسن الظن بفاعل أو جواز لتأوله حمل ذلك على حسن الظن فيه ويحتمل التأويل ما احتمل إذ البراءة من المسلمين من كبائر الذنوب فلا يجوز إيقاعها إلا بعد الوجوب".

وناقش الريامي ميول العوتبي ونزعاته الفكرية مؤكداً أن عوامل مختلفة صاغت اتجاهاته الفكرية منها: "دينه وعروبته، والمذهب الإباضي الذي ينتمي إليه والمدرسة الرستاقية التي درس على شيوخها، ومنها الاضطرابات السائدة

في عُمان في القرنين الرابع والخامس الهجريين، كل هذه العوامل أثرت في فكره، فخرج باتجاه يمكن تلمس معالمه من خلال مؤلفاته". ولعل ذلك يبدو واضحًا في بداية كتابه الضياء حين يقول: "فهذا كتاب دعاني إلى تأليفه وحداني إلى تصنيفه ما وجدت من دروس أثار المسلمين وطموس أثار الدين وذهاب المذهب وبتحمليه، فرأيت الإمساك عن أحيائه مع القدرة عليه ووجود السبيل إليه ذنبًا...". ومما يدل على سعة صدره هو ذكره لآراء الفرق الإسلامية المختلفة والمخالفة لآراء الإباضية ومنها الشيعة ومناقشتها من غير تعريض بها موضعًا للسبب "إذ العلم بذلك خير من الجهل به". كما أكد العوتبي موقفه المعتدل في كتابه الآخر (الأنساب) حين قال: "وأعوذ به من الحمية والعصبية والأخلاق الجاهلية".

وحيث يتكلم حسن محمد النابودة عن ميول مؤلف كتاب الأنساب فهو يؤكد على أن البيئة التي عاش فيها المؤلف بيئة تجارية ملاحية مزدهرة مما جعل أهلها معتدلين بعيدين عن الصراعات المذهبية التي تغذيها العصبية القبلية. ولهذا اتبع المؤلف مبدأ الحياد في تعامله مع الأحداث السياسية وأظهر امتعاضه في العصبية. ومن هنا فإن النابودة يرى أن العوتبي صاحب الضياء ليس مؤلف كتاب الأنساب مستندًا أن ميول العوتبي الإباضية ودفاعه عنها وإبرازه علمائها تختلف تمامًا عن ميول صاحب كتاب الأنساب المعتدلة مما يدل أنه ليس من علماء الإباضية. كما يشير النابودة إلى موقف العوتبي صاحب الضياء من وجوب البراءة من المتآمرين على عزل الإمام الصلت بن مالك، بينما يسرد مؤلف كتاب الأنساب أحداث القضية نفسها دون تأييد لطرف أو لآخر. ولكن

قراءة متمعنة للأحداث ربما تعدل من هذا الرأي، ذلك لأن موقف العوتبي في الضياء حول البراءة من الذين عزلوا الصلت بن مالك يعد موقفًا صحيحًا ومعتدلاً إذا ما قورن بموقف المدرسة الرستاقية، فالعوتبي كما أشرنا سابقًا يشترط في البراءة المعرفة والعلم بالقضية فمن شهر منه حدثهما وعلم به وجب عليه أن يبرأ منهما (أي من موسى بن موسى وراشد بن النظر). ثم إن كتاب الضياء هو كتاب في الفقه ولا بد أن تظهر فيه ميول العوتبي الإباضية، وهو ما لا شك فيه لأنه أباضي المذهب، أما كتاب الأنساب فهو كتاب تاريخ في إطار النسب يسرد الأخبار والأحداث بطريقة غير مفصلة، ومن هنا لا تظهر ميول المؤلف. فهل تظهر ميول الطبري المعادية للحنابلة في تاريخه، بينما تظهر هذه الميول بطريقة أو أخرى في تفسيره. وهل تظهر ميول اليعقوبي العلوية المعتدلة بحيث تؤثر على منهجه في كتاب التاريخ. وتؤكد نصوص في كلا الكتابين الضياء والأنساب منهجية واحدة كما أشرنا، تتخذ بصفة عامة الاعتدال أساسًا لها. كما أننا لا بد أن نتذكر الزيادات التي أضافها النساخون عبر القرون المتتابعة على كتب العوتبي بحيث يجد القارئ فيها الكثير من التصحيف والتحريف والتكملة.

### **نظرة تقويمية:**

مهما اختلف الباحثون المحدثون حول سيرة العوتبي وشخصيته ونسبه بعض مؤلفاته إليه، فإنهم اتفقوا على أن ما طرحوه من آراء واستنتاجات لا تُعد

نهائية، بل أن بعضهم مثل المستشرق ولكنسون تراجع عن بعض آرائه ثم عاد إليه.

إن هذا الخلط والالتباس الذي لفَّ العوتبي وكتبه ليس جديدًا في التدوين التاريخي العُماني، فقد حدث الشيء نفسه مع الأزكوي صاحب (كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة) حين شكك المستشرق الإنكليزي ولكنسون نفسه بأن الكتاب ليس من تأليف الأزكوي بل لمؤلف مجهول لا نعرف اسمه، وأكثر من ذلك يعتقد ولكنسون بأن اسم الكتاب هو (كشف الغمة في اختلاف الأمة). ويعزو هذه المزاعم إلى مؤرخي عُمان، ولكننا لم نجد ذلك عند المؤرخين العُمانيين البارزين الذين نعرفهم!! وقد تبع ولكنسون في هذا الرأي عدد من الباحثين المحدثين. إلا أن حسن محمد النابودة حسم الأمر حين أكد بالأدلة أن كتاب كشف الغمة مصنف متكامل ألفه الأزكوي، وأن كل مخطوطاته تحمل اسم الأزكوي، كما وأشار مؤرخو عُمان إلى اسم الأزكوي مرادفًا لكشف الغمة الذي توحى كافة أجزاءه أنه كتب بروح واحدة ونفس واحدة لمؤلف واحد.

فحالة العوتبي والمشادة حوله ليست استثنائية أو غريبة خاصة، وكما أشرنا سابقًا، أن الباحثين لم يجدوا إلا النزر اليسير عن ترجمته. ومن هنا فإن الطريقة الوحيدة للكشف عن العوتبي هي في محاولة استقراء مجموعة كتبه ورسائله، فهي وحدها التي تنبأنا عن شخصيته وميوله الدينية - السياسية، ومن خلال قراءة كتبه سنكشف كذلك منهجه والموضوعات التي يحاول أن يبرزها. وبكلمة أخرى هل أن هذه المؤلفات بأجزائها العديدة عبّرت عن هدف



واحدة ونزعة سياسية فكرية واحدة لمؤلف واحد؟؟. وهل أنها عكست بطريقة أو بأخرى مظاهر من بيئته ونشأته وموقفه من الصراع السياسي للزمن الذي عاش فيه؟ على أن هذا المشروع المقترح يتطلب جهدًا ووقتًا ومجموعة باحثين وربما تبناه مجموعة من طلبة الدراسات العليا أو أحد مراكز البحوث. وسنقتصر هنا على إيراد نماذج لهذا المنهج.

ولعل أول ما تعكسه مؤلفات العوتبي الموسوعية هو البيئة التي نشأ فيها، والثقافة التي تلقاها. وقد أشرنا سابقًا أن العوتبي ولد ونشأ وعاش في عوتب بصحار من ساحل الباطنة بعمان. وصحار مركز من مراكز الثقافة والفكر في تلك الآونة، بالإضافة إلى كونها ميناء بحري. فهي والحالة هذه كالبصرة في كونها مركز حضري يجتذب مختلف الأقاليم ويتلقى أنواع الثقافات. فهناك من يعمل في التجارة والملاحة وهناك من يشتغل بالعلم والمعرفة، كما وأنها مركز جذب سياسي ومحل أطماع خارجية عديدة لأسباب سياسية واقتصادية. وقد ذكر الجغرافي المقدسي (ت380هـ) عن صحار أنها قصبه عُمان عامرة وآهلة بالسكان ذات أسواق عجيبة وآبار عذبة، ويضيف المقدسي الذي كان يكتب في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أن الفرس (البويهيين) قد غلبوا عليها، لدرجة أن المقدسي يضيف بأن الفارسية كانت لغة دارجة في صحار. ولا شك فإن ظروف صحار أثرت على العوتبي في طور النشأة ثم الرجولة. فالموانئ بطبيعتها يتسم أهلها بالوداعة والحياد، لأنهم يدركون أن ازدهار مدينتهم التجارية لا يتحقق إلا بالاستقرار والأمن، كما وأن العوتبي وهو يعيش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي عصر النهضة الذي سماه آدم متز

بعصر الرينيسانس في الإسلام، اطلع على مختلف العلوم في مدينته الخليجية غير البعيدة عن البصرة وبغداد وغيرها من مراكز الفكر العربي الإسلامي في تلك الفترة من خلال المؤلفات التي أشار إليها في مجموعة كتبه والتي كانت تصله من هذه المراكز بطريقة أو بأخرى. كل ذلك جعل العوتبي مفتتحاً مرناً واسع الأفق بطبيعته.

وإذا كان العوتبي قد رحل إلى نزوى ودرس على علماء المدرسة الرستاقية في حينه وعلى رأسهم ابن بركة وتعلم منه الكثير فيما يتصل بالمذهب الإباضي، إلا أن نزعته المتفتحة المرنة جعلته موضوعياً وحيادياً في طلبه للعلم، وفيما بعد في تأليفه. ولذلك نلاحظه يأخذ عن أبي سعيد الكدومي زعيم المدرسة النزوانية في حينه ويذكره باحترام ووقار. ومعنى ذلك فقد كان العوتبي فوق الصراع الرستاقى - النزوانى.

وإذا ما عرّجنا على الحياة السياسية في صحار خاصة وعمان عامة، نلاحظ أن عُمان قد شهدت صراعات سياسية متتابة، وواجهت فتنة داخلية أعقبتها تدخلات خارجية. أما الفتنة الأهلية الداخلية فكان سببها عزل الإمام الصلت بن مالك الخروصي سنة 273هـ/885م ومبايعة الفقيه موسى بن موسى إمام جديد هو راشد بن النظر. وقد قادت هذه الحادثة إلى حروب مدمرة انتهت بزوال الإمامة الإباضية الثانية سنة 280هـ/893م. وقد وقف العلماء المعاصرون للحادثة بين مؤيد ومعارض، وقاد هذا الخلاف إلى انقسام سياسي بين أهل عُمان، مما أتاح المجال للقوى القبلية أن تظهر على المسرح السياسي

وبتشجيع من بعض رجالات الدعوة أنفسهم. وكان لابد أن تنشب معارك بين اليمانية المؤيدة لشاذان بين الصلت بن مالك والنزارية المؤيدة لراشد بن النظر الذي ألحق هزيمة كبيرة باليمانية في معركة (الروضة). وقد عبر ابن دريد العُماني بقصائده عن هذه الروح القبلية التي قسّمت عُمان وأضعفت إلى حد كبير المبادئ الإباضية، وقد تتابعت المعارك بني الطرفين كان من أشهرها موقعة (القاع) سنة 278هـ/891م حيث دارت الدائرة هذه المرة على النزارية.

بعد هذه الهزيمة طلب شيوخ النزارية من والي البحرين العباسي المساعدة العسكرية ضد الحميرية (اليمانية)، وبعد الاتصال بالخليفة العباسي في بغداد والحصول على الموافقة، جهزت حملة عباسية يساندها قبائل نزارية من أقاليم عديدة مثل بلاد الشام، وقد انتصر محمد بن نور (بور) القائد العباسي ودخل نزوى سنة 280هـ واتخذ إجراءات شديدة منها مصادرة كتب الإباضية وإحراقها وتخریب الأراضي الزراعية والقنوات ونقل المقر الإداري من نزوى إلى بهلا. لقد كانت النتيجة المباشرة لموقعة القاع زوال الإمامة الإباضية الثانية ككيان سياسي في عُمان. إلا أن النفوذ العباسي لم يشمل عُمان بكاملها بل انحصر في المنطقة الساحلية وخاصة صحار موطن العوتبي وشمالى عُمان ونزوى وبهلا. وظلت القبائل في الداخل تدين بالإباضية.

وحيث دخل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي نجد المعلومات التاريخية عن عُمان قليلة جدًا. ذلك لأن هدف المؤرخين العُمانيين هو كتابة تاريخ عُمان في ظل الإباضية، فهم لا يعيرون أهمية كبيرة لتاريخها حين

تسيطر قوى سياسية غير إباضية عليها. فالمعلومات نادرة بين سنتي 280هـ-  
320هـ ثم سيطرة العباسيين والقرامطة على عُمان. ثم تزداد الأخبار سنة  
320هـ/932م بسبب الانتعاش الذي مرت به الحركة الإباضية. وتعاقت على  
حكم عُمان قوى محلية موالية للعباسيين جنبًا إلى جنب مع القوى الموالية  
للإمامة.

ومن سوء الصدف في التاريخ العُماني أن تبرز الأطماع التوسعية  
القرمطية في هذه الفترة التي شهدت ضعف الخلافة العباسية وضعف الإمامة  
الإباضية. الأمر الذي بعث الأمل في نفوس القرامطة للحصول على موطنٍ قدم  
لهم في عُمان والتحكم في تجارة الخليج المزدهرة والتي تدر أرباحًا جيدة. وقد  
حاول القرامطة مرات عديدة الهجوم على عُمان ابتداءً من سنة 289هـ/902م  
ثم 305هـ/917م ثم نجحوا في سنة 317هـ-318هـ/929م مستغلين سحب  
القوات العباسية من قبل الخليفة المتقدر بالله العباسي لحاجته إليها في مناطق  
أخرى. وقد امتد نفوذ القرامطة لأول مرة إلى داخل عُمان حيث سيطروا على أدم  
القريبة من نزوى معقل الإمامة الإباضية. ولكنهم لم يتمكنوا من التقدم نحو  
السواحل الشرقية حيث كان يوسف بن وجيه يتمتع بالنفوذ بعد انتهاء نفوذ بني  
سامة.

لقد استمر الصراع على النفوذ في عُمان بين الإمامة الإباضية وبني  
وجيه (ممثلي العباسيين) والقرامطة. وقد نجح العُمانيون في وقف التقدم  
القرمطي وحسره تدريجيًا عن مناطق عديدة من عُمان. إلا أن قوة سياسية

عسكرية جديدة ظهرت على المسرح السياسي في منطقة الخليج وهي قوة البويهيين الذين سيطروا على بغداد سنة 334هـ/940م وسرعان ما ظهرت أطماعهم في تجارة الخليج. وكانت أولى المحاولات البويهية لاحتلال عُمان سنة 341هـ/952م ثم تبعتها المحاولة الثانية سنة 352هـ/963م بقيادة الحسن بن محمد المهلبى حيث أمل الأمير معز الدولة البويهى من الحسن المهلبى أن يكسب أهل عُمان إلى جانب الحملة البويهية باعتبار أن آل المهلب لهم ارتباطات قوية بأهل عُمان، ولكن القائد المهلبى ظل يماطل بحجة عدم جاهزية الجيش مما أزعج معز الدولة وأمره بالعودة إلى بغداد. ثم جاءت الحملة الثالثة مع انقراض حكم بني وجيه سنة 354هـ/965م تبعها حملة رابعة مباشرة أجبرت نافع الأسود حاكم عُمان على إعلان ولائه للبويهيين.

انتهز القرامطة عدم الاستقرار في عُمان، وعدم استكانة أهل عمان للنفوذ البويهى فقرروا التعجيل بحملة جديدة سنة 353هـ-354هـ/964-965م تتكون من أعداد كبيرة من الزنج في جيش القرامطة بقيادة أبي علي بن أبي منصور. ولقيت الحملة مقاومة شديدة، ولكنها تمكنت في نهاية المطاف من السيطرة على أجزاء من عُمان، واتفقوا مع أهل عُمان على حكم ثنائى يتكون من أمير ينتخبه أهل عُمان وممثل للقرامطة يشرف على الجيش وتحصيل الضرائب. ولم يقف البويهيون مكتوفى الأيدي تجاه احتلال القرامطة لعُمان فأرسلوا قوة عسكرية من العراق ساندتها قوة أخرى أرسلها عضد الدولة البويهى من إقليم فارس.

وقد انتصر البويهيون سنة 355هـ/965م على المقاومة العُمانية -  
القرمطية وأصبحت عُمان تابعة لعُضد الدولة البويهي الذي يحكم من شيراز.  
واستمر البويهيون يحكمون عُمان حتى انقسام البيت البويهي وتنازعه على  
النفوذ سنة 374هـ، وقد عيّن بهاء الدولة البويهي أبا محمد بن مكرم والياً على  
عُمان سنة 390هـ/199م. إلا أن استمرار الضعف في البيت البويهي أدى إلى  
استقلال أسرة بني مكرم بالسلطة في عُمان. كما انتهز العُمانيون الفرصة  
فبايعوا الإمام راشد بن سعيد بن عبد الله اليعمدي إماماً جديداً على عُمان سنة  
425هـ/1033م الذي استطاع تدريجياً تقليص النفوذ البويهي ثم إخراجهم من  
عُمان، كما نجح في استعادة عدد من المناطق العُمانية التي كانت تحت نفوذ  
بني مكرم. ولكن البويهيين في عهد أبي كاليجار سطوا على عُمان مرة أخرى  
فوصل عسكريهم من فارس إلى عُمان واحتل صحار سنة 433هـ/1044م. ولكن  
الحرب بقيت سجالاً حيث هاجمهم الإمام راشد بن سعيد سنة 442هـ/1050م  
وخلفه الإمام الخليل بن شاذان. وسيشهد عهد الإمام الخليل مهاجمة الأتراك  
السلاجقة عُمان. ومهما يكن من أمر فإن مصادرنا التاريخية لا تذكر إلا النزح  
اليسير من الحوادث فيما يتعلق بالنفوذ السلجوقي في عُمان، بل إن عهد الإمام  
الخليل بن شاذان شهد استقراراً نسبياً وعدم وجود تدخل خارجي في شؤون عُمان  
الداخلية، مما جعل الإمام يتفرغ للأُمور الداخلية وحاول رَأب الصدع فيما يتعلق  
بالخلافات المذهبية واستمرت إمامته حتى سنة 474هـ/1081م. على أن ذلك  
خارج نطاق العصر الذي عاش فيه العوتبي الذي ربما توفي في أرجح الآراء  
حوالي 440هـ/1048م أو قبل ذلك بقليل.

لقد قدّمنا فيما سبق سردًا موجزًا عن نشأة العوتبي وتكوينه الثقافي وعصره، ولاحظنا أن هناك عدة مظاهر وقعت في المجتمع العُماني كان لها أثرها في اتجاهات العوتبي المذهبية ومواقفه السياسية وخطته في التأليف الموسوعي. فالصراع على الساحة العُمانية كان متعدد الأنماط: لعل أولها: الصراع السياسي الذي شهدناه بين أهل عُمان والقوى الخارجية والذي تمثل في فترة العوتبي بالدولة العباسية وأعاونها في عُمان ثم القرامطة ثم البويهيين والذي كان هدفه أرباح التجارة والمكوس.

وثانيها: المشادة التي برزت بين المذاهب والفرق الإسلامية ومنها الفرقة الإباضية، خاصة وأن عُمان وموانئها لم تكن بمنأى عن تأثير الأفكار القادمة من الخارج من شيعية إمامية وشيعية إسماعيلية (قرمطية) وسنية. أما ثالثها: فهو انقسام الإباضية أنفسهم إلى رستاقية ونزوانية واستمرار هذا النزاع الفكري لعقود طويلة من الزمان والذي جرّ معه انقسامًا قبليًا سياسيًا.

وسنحاول من خلال مؤلفات العوتبي المنشورة أن نعطي صورة أوضح لتكوينه الفكري ومنهجه في التأليف ومدى الأثر الذي تركته العوامل السياسية والفكرية والعقائدية آنفة الذكر عليه كمؤلف أو الآراء والمواقف التي حاول إيصالها إلى تلاميذه وإلى المجتمع ككل.

ولنبداً بالكتاب الذي يهمننا وهو كتاب (الأنساب) وهو كتاب تاريخي في إطار النسب وهذا النوع من التدوين التاريخي يعد نمط من أنماط الكتابة في التاريخ عند المسلمين، وقد أشرت إليه في جملة بحوثي في هذا المجال. وكانت

بدايات هذا النمط من الكتابة التاريخية في مرحلة النشوء في المدرسة العراقية بالكوفة والبصرة لأسباب عديدة لا مجال لذكرها هنا. ولعل من أبرزها إظهار دور العرب في الفتوحات والإدارة والمجتمع عمومًا لدوافع التنافس القبلي بين العرب أنفسهم عامة، وبينهم وبين الشعوبية خاصة. ولعل أشهر من كتب في المرحلة الأولى محمد بن السائب الكلبى ت 146هـ/762م ثم ابنه هشام الذي يحوي مصنفه بالإضافة إلى النسب معلومات عن الرجال في مختلف الأنشطة، وتناول كذلك موضوعات تاريخية تمامًا مثلما فعل العوتبي في أنسابه. ولهذا فإن ما أشار إليه بعض الباحثين إلى أن منهج العوتبي في أنسابه جديد ومبتكر ليس صحيحًا، بل أنه يدل على الصلة المتبادلة والاتصال بين عُمان والعراق وإطلاع العوتبي على نتاجات غيره من المؤلفين المسلمين في هذا النمط وخاصة أحمد بن يحيى البلاذري (ت 279هـ) وكتابة أنساب الأشراف في اثني عشر مجلدًا ركز عشرة منها على قريش وثلاثة على الأمويين والباقي على قبائل العرب الأخرى. وهذا يعني كذلك بأن تركيز العوتبي فيما سماه شجرة النسب على الأزد التي هاجرت إلى عُمان وأطراف الخليج هو نهج سبقه إليه البلاذري، وأنه اطلع على مثل هذه النماذج. وكما وأن نقد بعض الباحثين المحدثين بأن معلومات الكتاب التاريخية مختصرة أو مقتضية حيث يشير الريامي بأن العوتبي اتبع منهج الاقتصاد في هذا الكتاب، وأشار النابودة إلى أنه لا يعطي تفاصيل للأحداث السياسية، ليس في محله لأنه ببساطة يسير على المنهج المتبع في كتابه التاريخ في إطار النسب، ولم يخل العوتبي به بل سار عليه مقتفيًا آثار أسلافه من المؤرخين في هذا النمط.



وفي معرض تعليقهم على محتوى الكتاب أشار بعض الباحثين أنه مقطع إلى أجزاء غير مترابطة ربما ربطها النساخ بعد ذلك، نقول أن العوتبي كان لديه نهج في تأليف كتبه وربط موضوعاتها بعضها ببعض، وقد اقتضاه هذا المنهج أن يؤلف سلسلة متتابعة منتظمة كان كتاب الأنساب الكتاب الأوسط في السلسلة. ويوضح العوتبي هذا التكامل بين مؤلفاته حين يقول بأن هدفه من تأليفه هو: "وحملي أن ألفت هذا الكتاب لأنني رأيت كتب الأنساب أكثر معونة وفائدة لطالب الأدب والعلم والفقهاء". فكتابه في الأنساب يعزز ويكمل كتابه الأمانة في اللغة وكتابه الضياء في الفقه وغيرها من مؤلفاته.

كما نستشف في كتاب الأنساب زمن تأليفه ومحتواه حين يقول العوتبي: "ثم نظمت بعد تصنيف فنون أجناس علم الأنساب أسماء ملوك الدنيا من لدن آدم عليه السلام إلى سنة ثلاثمائة وخمس وأربعين من تاريخ هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) وآله وتاريخ أعمارهم... وأسماء المبتدعين للأشياء، وأضفت إلى ذلك أسماء الذين عرفوا بكناهم وغاب عن أكثر الناس أسماؤهم...".

وأشار في موضع آخر من الأنساب "وقد نظمت نسب كل شريف ومذكور وبلغ وخطيب وشاعر من القبائل". وسار على منهج البلاذري، فيما يتعلق بأنساب القبائل العربية، فبدأ بنسب عدنان لأنه نسب الرسول ﷺ، ثم تكلم عن نسب القحطانية، رغم أن العوتبي فصل كثيراً من القبائل القحطانية بالمقارنة مع العدنانية، ومثلما كانت كتب الأنساب الإسلامية المتقدمة والتي يمثلها البلاذري خير تمثيل تعد وسيلة من وسائل الرد على الشعوبية المستفحلة في ذلك الزمن،

فإن العوتبي من خلال كتابه في الأنساب وكذلك كتبه في اللغة والأدب كان يدافع عن العرب ودورهم التاريخي الذي أنكرته الشعوبية واستهزأت به. فالعوتبي وهو يعيش في ظل البويهيين ويخشى من مخططاتهم لا يخفي تفضيله للعرب وحرصه على الحفاظ على مآثرهم، ويحث طلابه وجيله على معرفة أنسابهم، وكان العوتبي ملفتًا للنظر حين أسند كلامه برأي الكاتب المخضرم في أواخر عصر الأمويين وأوائل عصر العباسيين عبد الله بن المقفع حين مدح العرب بقوله: "قرائح صحيحة وغرائز قوية وعقول ثابتة، يحمون الذمار، ويحفظون الجار، ويطلبون الثار ويؤثرون النار على العار، والفقر مع العز على الغنى والذل، يأبون الضيم، ويطعمون الضيف، ويحفظون أنسابهم ومآثر آبائهم، ما يرضى أحدهم أقل مما يسخطه، ويحلمون في موضع الحلم، ويجهلون في موضع الجهل، ولست بواجد هذا في أحد من الأمم غيرهم فعليكم بمعرفة أنساب العرب ومآثرهم".

وفي كتاب الأنساب كذلك تظهر موضوعية العوتبي وحياديته تجاه الأحداث التاريخية واتساع أفقه ومرونته والتي أشاد بها النابودة الذي عزاها إلى بيئة صحار المتجهة نحو البحر و التجارة والاختلاط مع العالم الخارجي حيث "انعكس ذلك على شخصية مؤلف كتاب الأنساب الذي بدا واضحًا أنه لم يكن من المتعصبين للآراء والأهواء، ولم يبد أية ميول مذهبية متشددة، وأكد ذلك صراحة في قوله: وأعوذ به من الحمية والعصبية. وكان قرقرش قد أشار إلى الاتجاه نفسه عند العوتبي حين قال: "أبدى العوتبي تسامحًا في عرضه لأخبار رجاله، فلم تظهر في أخباره جوانب عصبية مذهبية وإقليمية، بل ارتبط بالنظرة

الإسلامية الشاملة على الرغم من اهتمامه بسير رجال من أهل عُمان، حتى أنه التزم بذلك مع الشخصيات التي عاشت في عُمان فسادًا مثل الخيار بن سبرة المجاشعي ومحمد بن بور وترك إصدار الأحكام للقارئ...".

إلا أن ذلك لم يمنع العوتبي من التعبير عن مشاعره العُمانية الصادقة، وتأكيدَه على قبائل عُمان وشخصيات عُمانية أمثال الفراهيدي وابن دريد، وكذلك الشخصيات المهلبية ودورها ليس في تاريخ عُمان فقط بل في تاريخ الإسلام، فهو حين يمدح المهلب بن أبي صفرة يبرز صفاته الحميدة بقوله: "ولم يكن في وقت المهلب في جميع العراق وقبائل العرب رجل منهم بقي في الحزم والعزم والعلم والصدق والأمانة والوفاء...". وأبان العوتبي دور أزد عُمان في عمليات الفتح الإسلامية البرية والبحرية في صدر الإسلام، إلا أن العوتبي لم يكن دائمًا بالصورة التي صور بها، فقد عدّ العوتبي خلفاء الأمويين والعباسيين "ملوكًا" ولم يسبق أسمائهم بألقاب تدل على "الخلافة". بل إن قرقر نفسه لاحظ أن العوتبي لم يربط الخلفاء وكبار العلماء بالترضي والترحم، إلا في حالة الخلفاء الراشدين وبعض أئمة عُمان والشيخين ابن بركة والبسيوي. ولم يخف العوتبي مشاعره لما حل بال المهلب بعد معركة العقر سنة 102هـ/720م ومقتل يزيد بن المهلب ومعظم أهله وتشتت البقية الباقية في المشرق الإسلامي وحمل بعضهم أسرى إلى يزيد بن عبد الملك الذي لعنه وكرّر اللعنة على يزيد بن معاوية ومعاوية بن أبي سفيان. ولم يستثنى الحجاج بن يوسف الثقفي من لعناته. وعدا ذلك فقد كان العوتبي يبرز دائمًا فضائل إنجازات الرجال ولا يتعقب سقطاتهم، ويستخدم عبارات مهذبة حين شكّه في صدق الراوية أو الأخباري،

وحرص على نقل الروايات المتعارضة حول الحادثة الواحدة من أجل اكتمال صورتها عند القارئ. فكان تعامله مع الخبر يعتمد بصورة عامة، على الأمانة والابتعاد عن النظرة الضيقة.

إن اهتمام العوتبي في (كتابه الأنساب) بتاريخ عُمان ورجالها يعبر أولاً وقبل كل شيء عن موقف ملتزم تجاه وطنه عُمان وهو يتعرض لغزو قوى قرمطية وبويهية وغيرها. فلا بد له وهو المثقف أن يؤكد على تاريخ عُمان وهويتها العربية - الإسلامية، وهو يلاحظ الخراب والدمار تعصف بها والحروب تحاول تمزيقها، وهذا هو الهدف الرئيسي في نظرنا لهذا النمط في التدوين التاريخي، وكان العوتبي مدركاً له بعمق. ويتسق مع هذا الهدف ويتمشى معه ما كتبه العوتبي عن الإباضية مذهب أهل عُمان الذي تعرّض هو الآخر إلى الخطر الإسماعيلي القرمطي والشيعي البويهي وما لاقته الإمامة الإباضية من ضربات قاسية منهما. ولذلك فهو يتأسف في سيرته على ضعف المذهب الإباضي في عُمان ويرى أن الأمر يقتضي انتشاله وإنقاذه فيقول: "غير أن متحمله (المذهب الإباضي) من القوم مهجورون، ومنتحليه اليوم مقهورون، فكونوا له معتقدين وعليه معتمدين". كما ويوضح أن ظروف عُمان الصعبة تمنعه من التصريح كتابة بأفكاره السياسية فيقول "ثم إن لمذهبنا هذا قولاً لا يمكن إظهاره إلا مشافهة...". ولهذا فقد أشار البعض أن له كتاباً في (الإمامة) يعبر عن وجهة النظر الإباضية حولها، لكي تكون واضحة لإتباع الإباضية من معاصريه ومن يخلفهم. ولكن هذه الرسالة مفقودة. كما كان له

رسالة في الرد على الشيعة ومذهبهم وهي ذات طبيعة فقهية تشتمل على حوالي عشر صفحات من كتاب الضياء .

ولا شك أن العوتبي المؤرخ والفقيه يدرك الخلاف الواسع بين وجهة النظر الإباضية ووجهة النظر الشيعية (الإمامية) في مسائل عدة أبرزها ربما مسألة الخلافة والإمامة. ولا شك أن العوتبي قد اطلع على خطبة أبي حمزة المختار بن عوف الإباضي [الأصفهاني، الأغاني 138/23] والتي قال فيها فيما يتعلق بالشيعة: "... ينتظرون الدول في رجعة الموتى، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة، ويدعون علم الغيب لمخلوقين لا يعلم أحدهم ما في داخل بيته... ينقمون المعاصي على أهلها ويعملون إذا ظهروا [أي إذا تقلدوا السلطة] بها ولا يعرفون المخرج منها...".

ويظهر من هذه الخطبة عمق الخلاف بين الطرفين، فموقف الإباضية واضح. فبينما كان موقف الشيعة شديد التعقيد، أكد الإباضية على الشورى والانتخاب وبشرية الإمام لا قدسيته وجواز الثورة على الإمام الجائر في الوقت الذي أكد الشيعة على الوصاية وعدم تحكيم البشر في الإمامة المهديّة والطاعة العمياء للإمام. وما إلى ذلك. وبجملة واحدة فإن الإمامة عند الإباضية مخالفة للإمامة عند الشيعة. ومهما يكن من أمر فإن منطلق العوتبي، وهو المؤرخ المفكر المعتدل، كان غير منطلق أبو حمزة السياسي الثائر. ومن هنا كان العوتبي يهدف إلى التفاهم ومعالجة الخلاف بين الفرق الإسلامية. فمثلما حاول راب الصدع بين الرستاقية والنزوانية حين تبنى موقفاً تصحيحياً أكثر اعتدالاً من

موقف مدرسته الرستاقية حول البراءة والذي أشرنا إليه سابقاً، حاول العوتبي كذلك الحوار مع الفرق الإسلامية الأخرى وخاصة الشيعة من القرامطة والبويهيين على اختلاف مذاهبهم، وقد أظهر موقفه صراحة حين أشار بأنه سينقل آراء جميع الفرق الإسلامية لأن "العلم بذلك خير من الجهل به".

إن علوم الأنساب والتدوين التاريخي في إطار النسب لا تكفي للحفاظ على الهوية العربية وعلى الإسلام الصحيح، ولا بد من إسنادها بركن آخر مهم وهو اللغة والأدب، ومن هنا كان تأليف العوتبي لكتاب (الإبانة في اللغة العربية) لبنة أخرى في مشروعه الموسوعي الهادف والمرسوم بدقة مكملاً لكتابه الأنساب والضياء. فالعوتبي يدرك تمام الإدراك بأن الحفاظ على المثل والقيم في ظل الصراع السياسي والقوة الغازية لا يمكن أن يتم جهازاً فاستنبت بثاقب بصيرته طريقة غير مباشرة بث من خلالها آراءه وهي طريقة التأليف والتدريس في المسائل التي تحفظ الهوية وهي: الأنساب والتاريخ واللغة والأدب وأخيراً وليس آخراً الفقه، وهي العناصر التي تعزز شخصية الأمة وثقافتها.

فنحن إذن حين نتكلم عن (كتاب الإبانة) في اللغة والأدب نتكلم عن السند الثاني الذي استخدمه العوتبي للحفاظ على الهوية في وطنه عُمان في ظل ظروف صعبة وعصيبة. لقد أوضح العوتبي في الجزء الأول من الإبانة أهمية الأدب فقال: "... وبه يقرب الفهم ويجب أن يبتدئ به الإنسان ليقوم به اللسان". وقد انتبه محمود الريامي إلى هذه الأهمية وعزا اهتمام العوتبي باللغة العربية وآدابها إلى عوامل ثلاثة: أولها الدافع الديني فالاهتمام بالعربية من

مقتضيات الشرع، وثانيها الاحتلال البويهي لأجزاء من عُمان في القرن الرابع الهجري والنصف الأول من القرن الخامس الهجري والتي شملت صحار وهو دافع مهم للاهتمام بالعربية، وثالثها أن العوتبي عاش في عصر "النهضة الإسلامية" (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وما بعده)، ولم يكن العوتبي بمعزل عن هذه النهضة. كما وأن شيوخ المدرسة الرستاقية التي ينتمي إليها العوتبي ربطوا القضايا اللغوية بالفقه ووظفوها في مسائل الشريعة، تشهد بذلك مؤلفاتهم الغزيرة، ومن هنا نشاهد العوتبي يبسط القضايا اللغوية في إطار الفقه، والمتتبع لمؤلفاته يلحظ أنه يحيل من كتاب الإبانة إلى كتاب الضياء ومن الضياء إلى الإبانة.

إن هذا الربط كان متعارفًا عليه بين المفكرين المسلمين في القرون الإسلامية المتتابة، فابن تيمية يقول في هذا الصدد "إن الله لما أنزل الكتاب والحكم باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغًا عنه الكتاب والحكمة بلسان العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به، لم يكن سبيل ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان، وصارت معرفته من الدين". ويؤكد الشاطبي المعنى نفسه حين يقول "إن الشريعة عربية، وإذا كانت عربية، فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم العربية حق الفهم، لأنهما سيان في النمط ما عدا وجوه الإعجاز". وفي هذا المجال يقول ابن خلدون: "علم اللسان العربي أركانه أربعة وهي: اللغة والنحو والبيان والأدب، ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة. إذ ما أخذ الشريعة من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب". لم تكن هذه المعاني والمفاهيم بعيدة عن

العوتبي وعن مدرسته وهو يعيش في بيئة عربية - إسلامية، ولذلك قال في الضياء "من لم يكن للأدب عارفًا كان للعلوم مصحفًا وللکلام محرّفًا".

أما النموذج الثالث الذي نحاول أن نستشف منه شخصية العوتبي وميوله فهو دون شك كتاب (الضياء) وهو كتاب في الفقه، وقد عُرف العوتبي به أكثر من أي كتاب آخر ألفه، ويقع في 24 جزءًا. وأشار العوتبي إلى الهدف من وراء تأليفه فقال: "والغرض الموضوع له هو الفقه الذي هو أصل العلوم وأولها وأفضلها وأجلها وإمامها وأكملها ومنه تستنبط كل معرفة وعنه تضبط كل صفة". وفي كتاب الضياء يتضح منهج العوتبي في التكامل بين الفقه والأدب والتاريخ والأنساب، الذي انتهجه في كتابيه آنفي الذكر، فقد عزز المسائل الفقهية باللغة والأدب والتاريخ وما فيها من شعر ونقد وأمثال وحكم وفي هذا يقول العوتبي نفسه: "ولم أخله من حكمة عجيبة أو كلمة غريبة ومثل ساير وبيت نادر وسنن وأخبار ومواعظ وأشعار، وإذ كانت العلوم تتشابك اتباعًا والمعاني تتشابك اتساعًا". ولا ينسى العوتبي وهو يتكلم أن يلمح بصورة غير مباشرة من خلال الضياء بانهايار الأوضاع السياسية وأثرها على ذهاب العلم وطالبيه في بلده فيقول: "وأن الصحيح قد كان وأن الباطل ما هو الآن". ذلك لأنه يعي دوره الثقافي في مجتمعه ويريد أن يبث روحًا جديدة بين تلاميذه وأهل زمانه نحو الأفضل من خلال العلوم التي اختار الكتابة فيها عن قصد. والكتابة وسيلة سلمية ولكنها أكثر تأثيرًا على المجتمع من الثورة المسلحة.



والعوتبي يظهر في كتابه الضياء مثلما ظهر في كتابه الأنساب مترنًا  
موضوعيًا في معظم آرائه في الفرق والمذاهب الإسلامية، وحتى بالنسبة لمذهبه  
الأباضي ومدرسته الرستاقية بدا العوتبي كما أشرنا سابقًا في عدد من تخريجاته  
الفقهية في الضياء وإحدى رسائله ملتزمًا بمنهج شفاف مقبول إذا ما قورن  
ببعض مشايخ المدرسة الرستاقية. وقد أشار إلى ذلك صراحة بقوله: "وقد ذكرت  
شيئًا من أقاويل قومنا الموافقة لنا والمخالفة لأقاويلنا في مواقعها من الكتاب إذا  
العلم بذلك خير من الجهل به". وقد طبق هذا المنهج في سرده للآراء  
المتعارضة والمتناقضة مع آرائه سواء في الأنساب والتاريخ واللغة وآدابها  
والفقه.

وهنا يجب ألا ننسى بأن العوتبي عاش في عصر الاستقطابات المذهبية الحادة  
"التي ابتلى بها التفكير الإسلامي ولهذا كثر الا نتحال والتحريف والتشويه وإلزام  
المخالف بما لا يلزم". ومقارنة بين ما كتبه الأشعري (ت324هـ) حول كتاب  
الفرق الإسلامية حين قال: "... ورأيت الناس في حكاية ما يحكون من ذكر  
المقالات ويصنفون في النحل والديانات بين مقتصد فيما يحكيه وغالط فيما  
يذكره من قول مخالفه، وبين متعمد للكذب فيما يذكره في الحكاية إرادة التشنيع  
على من يخالفه... وليس هذا سبيل الربانيين ولا سبيل الفطناء المميزين".  
وكذلك قول فخر الدين الرازي (606هـ) عن عبد القادر البغدادي (429هـ).  
وكتابه الفرق بين الفرق: "وهذا الأستاذ شديد التعصب على المخالفين، فلا يكاد  
ينقل مذهبهم على الوجه". إن المقارنة لا شك توضح تميّز العوتبي في  
موضوعيته على غيره في هذا المجال.

## الخاتمة

يهدف هذا البحث الإشارة إلى أن "المشادة" بين الباحثين المحدثين حول سيرة العوتبي وميوله ومؤلفاته غدت "حوارًا" بيزنطيًا بسبب ندرة المعلومات عنه في مصادرنا التاريخية العُمانية وغير العُمانية. وأن أحد الوسائل المقترحة لإعادة اكتشاف العوتبي وتقويمه تقويمًا أكثر صحة مما قيل ويقال حتى وقتنا الحاضر هي بالعودة إلى قراءة متأنية عميقة لمؤلفاته المتعددة المنشورة منها والمخطوطة ومحاولة العثور على الحلقة المفقودة، فهي وحدها الكفيلة بفهمه فهماً أكثر موضوعية وتقديم قراءة جديدة له.

لقد أشار بعض الباحثين بطريقة أو أخرى إلى هذه الوسيلة وأكدوا أن العوتبي المؤلف الموسوعي لم يدرس دراسة مستفيضة من خلال مؤلفاته، كما أن مؤلفاته هذه لم تدرس بشكل مترابط بعضها مع البعض الآخر، في الوقت الذي يربط المؤلف نفسه بين كتبه ويحيل بعضها إلى البعض الآخر، ويشير إلى الأسباب التي دعت به إلى الاهتمام بهذه العلوم بالذات دون غيرها.

ثم إن منهجية العوتبي والمصادر التي أخذ منها مادته تزودنا بفكرة جيدة عن التواصل الثقافي والفكري بين عُمان في زمنه وباقي ديار الإسلام وخاصة العراق حيث النهضة الفكرية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وما بعده، هذا إضافة إلى أن مؤلفاته تلقى أضواءً على الحالة السياسية - الدينية في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وبجملة واحدة فإن اهتمام العوتبي

بالعلوم التي اهتم بها يكشف إدراكه لمسؤوليته في الدفاع عن العروبة والإسلام  
في بلده عُمان تجاه الخطر الذي كان يحدق بهما.

